مرايا الدكتور حمودة المحدبة
من البنيوية إلى التفكيكية

بقلم : إبراهيم عباس غانم
مصر

إن واقعنا الثقافي العربي يذكرني بأسطورة - الشاطر حسن - الذي ذهب لإحضار الدواء لمحبوبته من البلاد البعيدة، وفي بقعة (ما) من الأرض وقف محتارا إذ وجد أمامه ثلاثة طرق وتساءل أيها (طريق السلامة)، و(طريق الندامة) و(طريق اللاعودة) .

وكذلك نحن في مطلع القرن الجديد وبينما نواجه رياح التفتيت وطوفان العولمة نتساءل إلى أي اتجاه تتوجه ثقافتنا العربية، بعد أن جربنا كل الثقافات الأجنبية وبعد وضوح الرؤية، وعلى رغم ما عندنا من أساتذة ومعلمين على درجة الدكتوراه في كل الثقافات اكتشفنا أن كل هذه الثقافات لا تعبر عن شخصيتنا الحقيقية، وأنها حولتنا إلى مسخ لا شكل له ولا مضمون، عندئذ كان لا بد لنا من وقفة لإعادة النظر في هذا الواقع الثقافي الذي يشكل وعي الأمة العربية، وظهرت الدعوة للبحث عن الجذور، ونحت مصطلح عربي أدبي خاص بنا، وقد لاقت هذه الدعوة استحسانا من المؤيدين لها خاصة في هذا العصر الذي تحاول فيه المجتمعات النامية الاحتماء بأصولها التاريخية والتراثية من شر العولمة والتغريب.

من أجل ذلك كان لزاما علينا - نحن المعتدلين - كشف الستار عن هذه الثقافات المستوردة وإعادة تقييمها حتى نشكل أرضا صلبة يقف عليها أولادنا من بعدنا استعدادا للانطلاق نحو مستقبل أكثر خصوصية مع بداية القرن الجديد .

إن هذا ما دفعني لاستقبال كتاب (المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك للدكتور عبدالعزيز حمودة والصادر عن سلسلة عالم المعرفة ٢٣٢) بترحاب شديد ورغم حجمه الكبير (٤٠٠ صفحة تقريبا) إلا أنني عكفت على قراءته عكوف الطالب على الدرس استعداداً ليوم الامتحان، فماذا كانت نتيجة هذا الاعتكاف؟! .

في البداية لا بد أن أعترف بجهلي - ولا خجل - فقد سبقني الدكتور عبدالعزيز حمودة بمثل هذا الاعتراف في بداية كتابه - لقد جعلني هذا الجهل أتصدى للكتاب (النص) وأنا أعزل من سلاح (أفق التوقع) مما كان له الأثر في عدم تحقيق (التناص أو البينصية) التي ستؤدي إلى (موت المؤلف) ومولد (الميتانقد) من خلال (الميتالغة) مما سيكون له الأثر في تحقيق (لا نهائية المعنى) عند التفكيكيين من خلال مبدأ (إساءة القراءات) التي جعلت المتلقي يصبح هو المبدع الحقيقي للنص الجديد كي تتحقق أدبية النقد أو إبداعية الناقد .

وبدلا من (إنارة النص) الذي هو الوظيفة الحقيقية للنقد والناقد يجد القارئ نفسه في دوامة كما يقول الدكتور عبدالعزيز حمودة:

«إن القارئ يجهد نفسه كثيرا ويدخل في متاهة إثر متاهة ليخرج منها في النهاية مرهق الفكر وقد فقد توازنه تماما بعد أن ابتعد أميالا عن النص بدلا من الاقتراب منه».

واسمحوا لي أن أتخذ من تبسيط هذه المصطلحات مدخلا لهذا العرض عملا بمبدأ صاحب البحث الذي يقول: **«معصيتي الأولى هي تبسيط المعلومات بقدر الاستطاعة، فأنا هنا لا أخاطب القارئ المتخصص»** واعتبرها معصية، لأنه يرى أن من يحاول تبسيط البنيوية والتفكيك في عرف أصحابها عاص لأن فلسفتهم بنيت على الغموض .

وعندما ننظر مصطلحاً مثل (أفق التوقع) الذي هو محور من محاور نظرية التلقي عند تبسيطه يقول دكتور حمودة : **«هذا التوقع تحدده ثقافة القارئ وتعليمه وقراءاته السابقة أو تربيته الأدبية والفنية»** باختصار هو كل المخزون الثقافي والحياتي للقارئ بعد أن يضاف إليها تقاليد الجماعة التي ينتمي إليها القارئ .

وعندما نقارب - بمعنى نناقش - مصطلح (التناص - البينصية) سنجده مسؤولا بالاشتراك مع (أفق التوقع) عن اختفاء النص الحقيقي حيث إن هذا الأفق مسؤول عن تفسير النص وتحديد

د . عبدالعزيز حمودة

المعنى كما يقول الدكتور عبدالعزيز: **(إن تفسير النص وتحديد المعنى يقررهما أفق المتلقي القارئ للنص)** إن النص قبل القراءة عبارة عن مجرد كومة من الأوراق ومجموعة من الحروف والكلمات يجمعها القارئ في ذهنه ويضيف إليها من مخزونه الثقافي وتقاليد جماعته ما يحدد المعنى ويساعد على التفسير، وعندئذ يصبح ما كان نصا مكتوبا في عقل القارئ منتجا آخر ما بين نص أو (تناص - بينصية) إذ يحمل نصوصا أخرى كانت عبارة عن آثار من أفق (أفق المتلقي) تلك رؤية تفكيكية تختلف عن (النصية) التي ارتبطت بالبنيوية وتعني تحليل النص الأدبي من داخله وعدم الاستعانة بأي شيء خارجه، وهو ما يقول عنه النقد الجديد (الموضوعية)، وليس معنى ذلك أن (التناص) يعني فوضى التفسير أو القراءة مطلقا فإن كل

قارئ يمثل جماعة ينتمي إليها هي التي تحدد مسار القراءة، وفي الكتاب يقول :

«إن التغيرات التي في تفسير النص تعرف بالحدود والضوابط . وإنها تغيرات محدودة ومحكومة لأن القارئ ليس طليق اليد تماما في استخدام أي استراتيجية قراءة تحلو له، فالقارئ ينتمي إلى جماعة تفسير معينة تنتج حقائق تفرزها تقاليدها . إن الإطار المرجعي للجماعة هو الذي يحدد للقارئ ما يمكن أن يقوله أو لا يقوله في تفسير النص» .

وقبل الانتقال إلى المصطلح الثالث وتبسيطه (موت المؤلف) أعترف أنني قد أصبت - قبل فهمه - بصدمة، خاصة وأنا في الأصل كاتب ومؤلف «دراما» ولكن بعد التعرف على معاني العناوين للفصول الأربعة التي يتكون منها الكتاب، وبعد فهم مضمون العناوين الجانبية (أربعون عنوانا) .

أجدني بت على وشك الاقتناع بأن المؤلف قد مات حسبما يقول صاحب البحث **«المؤلف قد مات بالفعل يوم اعتمدت الحركة النقدية (النموذج اللغوي) أساسا لمقاربة البناء (مناقشة النص) فقد كانت جميع معطيات النموذج اللغوي تشير كلها في اتجاه (موت المؤلف) منذ السنوات المبكرة للقرن العشرين حيث كان التركيز على العلاقة بين الأنساق (الأنظمة) وليس بين النص ومؤلفه»** .

ومهما حاول الأكاديمي أن يكون بسيطا في أسلوبه فإنه سيكون صعبا على القارئ العادي الذي لا يحسن سوى قراءة المجلات والصحف السيارة، لقد استخدم الدكتور عبدالعزيز حمودة ما يقرب من مئة صفحة ليقول لنا: إن (النموذج اللغوي) الذي اكتشفه فدينان دي سوسير يركز على العلاقات داخل البنية اللغوية - علاقة الحرف بالكلمة (العنصر بالوحدة) وعلاقة الكلمة بالجملة (النسق الأصغر) وعلاقة كل منهما بالنسق الفردي (أي النص الأدبي)، ثم علاقة كل هذه بالنسق الأكبر (في اللغة قواعد النحو والصرف)، أما البنية الأدبية (النموذج الأدبي) فقد سار على نهج النموذج اللغوي منذ أن اعتمده ليفي - شتراوس من حيث العلاقات بين الوحدات المكونة للرواية (مراحل تطور الحدث والحبكة في الرواية الأدبية أو الدرامية مثل التعقيد والصراع والانقلاب ثم الاكتشاف) وهذا النموذج يهتم بالشكل دون المضمون، وعليه فإن اهتمامه يكون بنظام الكلمات في السياق أو الوحدات في البناء الدرامي أو الروائي، ولا يهتم الناقد بالدلالات (المعاني) وعن ذلك يقول الباحث :

«إن فشل البنيوية الحقيقي والذي تلتقي عنده الوان القصور المختلفة في التحليل البنيوي هو عجز المنهج عن تحقيق المعنى برغم أن محوري النقد الحداثي كله هما: اللغة والمعنى .. وإذا سلمنا بكفاءة المنهج البنيوي في تقديم تحليل منهج علمي للغة فمن الصعب التسليم بكفاءته في تحليل النصوص الأدبية وإنارتها وتحقيق المعنى» .

باختصار شديد، إن المنهج العلمي من الممكن أن يكون مفيدا في علمية اللغة أما علمية الأدب فمن الصعب أن نقيم نموذجا تقاس عليه كل النصوص الأدبية في الرواية مثلا أو في الشعر لأن الإبداع حالة وجدانية والعلم حالة إدراكية، ومن هنا تكون الاستحالة .. ولكن .. ما علاقة كل هذا بموت المؤلف؟ العلاقة ظاهرة واضحة، فإن البنيوية - كما كانت ما قبلها (النقد الجديد) - تنادي باستقلالية وذاتية النص بعيدا عن قصد المؤلف، وعن المتلقي، وهنا إنكار لوجود المؤلف، أما في التفكيك فإن (التناص) وانتفاء القصدية والتأكيد على دور القارئ المتلقي قد أودت بالمؤلف، وإذا كانت أهم حقائق الحياة هي (موت) و (ميلاد) فإن (موت المؤلف) أعقبه (ميلاد الميتانقد) وهو مصطلح يعني (نقد النقد) من ناحية، وإبداعية النص النقدي من ناحية أخرى، فهما يمثلان وجهين لعملة واحدة تجمع بينهما اللغة الشارحة (الميتالغة) وهي لغة تلفت النظر إلى مقصدها، وتحتشد بالتقاطعات والتداخلات غير المفهومة والمربكة، وتتسم بالغموض المتعمد والمراوغة المقصودة . وتتطلب الاستعانة الدائمة بمعاجم حديثة في الدراسات النفسية واللغوية والنقدية لتحديد دلالات المفردات، ناهيك عن الرسوم والجداول والأشكال الهندسية، والجبر

مما كان محيرا للقارئ البسيط ... ويقول الدكتور حمودة في هذه الجزئية :

«إن النقاد الحداثيين لا يخفون طموحهم في أن يتحقق القبول النهائي للنقد باعتباره أدبا دون أن يكون في ذلك تهديد للأنواع القائمة مثل الشعر - الرواية - القصة - الدراما» .

ولتحقيق هذا الهدف فقد ارتدوا مسوح (عباءة) الإبداع، فكانت النتيجة النهائية أن النقد الحداثي تحول هو نفسه إلى نقد النخبة بل نخبة النخبة، ومن قبل ارتدوا مسوح العلماء عندما حاولوا تطبيق مبادئ المنهج العلمي، فأبعدهم ذلك عن تحقيق هدفهم في مقاربة النص، إذ إن تحقيق العلمية لا بد أن يكونه على حساب المعنى كما يقول الباحث في كتابه :

«إن أخطر التهم التي توجه إلى المشروع البنيوي ترى أن العلمية أدت إلى اختزال أو تصغير النص بصورة أفقدت التحليل العلمي القدرة على تحقيق المعنى حيث إن تفسير الدلالة لا يعني تحقيق المعنى».

إن هذا الفشل جعل أصحاب المشروع التفكيكي يبدؤون مشروعهم بالشك في المنهج العلمي، والشك في إمكانية تحقيق علمية النقد سعيا وراء تحقيق المعنى ولكنهم - للأسف - لم يستطيعوا تحقيقه كما ينبغي، إذ إن الاهتمام بدور القارئ / المتلقي، ومبدأ إساءة القراءات وتداخل التداعيات وتشكيل التناص وتعدد القراءات بعد تعدد القراء سوف يوجد تعدد التفسيرات، وبالتالي تعدد المعاني، وعندها يحدث ما حذر منه الباحث من إرهاق للفكر وابتعاد عن النص بدلا من الاقتراب منه، وتنتهي الوظيفة الحقيقية للنقد حسب قول الدكتور الباحث :

«إن أتباع المنظورين النقديين يشتركون في إنجاز واحد، وهو حجب النص، فالقارئ ينهمك في فك طلاسم الشفرة النقدية التي ترتدي مسوح العلمية عند النقاد البنيويين وينهمك أكثر في فك خيوط النص النقدي بتداخلاته وتركيبيته وأصدائه واقتطافاته عند النقاد التفكيكيين، وفي الحالتين (ضاع النص) ولم يتحقق المعنى، وفشل المشروعان في الواقع في تحقيق الأهداف التي أسسوا عليها مبادئهم الأساسية» .

وهنا يطرح سؤال .. هل معنى أن الباحث في كتابه وسعيه لكشف مثالب الحداثة يرفض هذه الحداثة ؟ والإجابة من خلال البحث تقول :

«إن هذه ليست دراسة ضد الحداثة، لقد عشنا قرونا طويلة من التخلف الحضاري يجعل الحداثة ضرورة من ضرورات البقاء، وليست ترفا فكريا ولكن .. أي حداثة نعني ؟

نحن فعلا بحاجة إلى حداثة حقيقية تهز الجمود وتدمر التخلف وتحقق الاستنارة، لكنها يجب أن تكون حداثتنا نحن وليست نسخة شائهة من الحداثة الغربية».

لقد حدد الباحث الهدف من كتابه بأنه يرفض تقليد الآخرين، ويتطلع إلى حداثة عربية الجذور، ويرى أن الحداثة الغربية تقليد مشوه لا يصلح عندنا لأسباب ذكرها في فصل يتكون من اثنتين وخمسين صفحة بعنوان (الحداثة - النسخة العربية).

يبدأ الباحث في عرض أسبابه ويقسمها إلى شقين، الأول نظري، والشق الثاني تقني تطبيقي، فهو يرى نظريا أن جذور الحداثة فكرية بالدرجة الأولى وثقافية قبل أي شيء آخر، فقد أعطانا الحداثيون العرب فكرا لقيطا مجهول النسبة عندما استوردوا مصطلحا أدبيا، يختلف في واقعه عن الواقع العربي تاريخيا واقتصاديا وفكريا وفلسفيا،

وحاولوا زراعته داخل الواقع الثقافي العربي الذي رفض التعايش مع هذا النتاج الفكري الفلسفي الغريب، فكانت الحداثة الغربية في واقعنا ضربا من العبث أدت بدورها إلى نشوء فجوة بين القارئ العادي لنقاد الحداثة العربية وهؤلاء الزمرة المستغربة التي تحولت إلى مجموعة من النخبة تخاطب نفسها فقط، وحول هذا المعنى يقول الباحث :

«رغم انتماء المصطلح النقدي الغربي إلى التراث الفلسفي الغربي فإن المتلقي المثقف وليس العادي (عندهم) يجد صعوبة في تحديد دلالاته – فما بالنا إذا كان المصطلح الغربي الذي تكتسب شرعيته ودلالاته داخل الإطار الفكري للفلسفة الغربية يستخدم الآن في النسخة العربية للحداثة خارج هذا النطاق الفكري، إننا نستعير المصطلح النقدي ونخرجه من دائرة دلالته داخل القيم المعرفية فيجيء غريبا ويبقى غريبا ويذهب غريبا والنتيجة الطبيعية هي فوضى النقد التي خلقها الحداثيون» .

أولاد صناع الحداثة الغربية لا يفهمون آباءهم فكيف يريدون منا أن نفهمها؟! والحق يقال – ليس العيب فيهم إنما الخطأ يقع على الحداثيين العرب الذين فشلوا في تنقية المصطلح الوافد من عوالقه الثقافية الغربية، مثلما فشلوا في نحت مصطلح نقدي جديد خاص بهم، مما أوقعهم في فجوة الازدواجية المتعددة الجوانب فكانت :

١- ازدواجية الولاء .
٢ – ازدواجية القيمة.
٣- الازدواجية الفكرية .
٤ – الازدواجية البيئية .
٥ – ازدواجية التزامن أو الزمن .

ويكون السؤال – لماذا كل هذا ؟ وما هو السبب ؟

إن السبب الظاهر – كما يقولون وأختلف معهم– هو هزيمة ١٩٦٧ .

فلم يأتنا ذلك إلا بعد سقوط الحلم، فأصبح رد الفعل للضياع رفضا للواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي العربي ونظرة إلى الأمام لإثبات وجودنا الثقافي ومن الجانب الأيديولوجي، ثورة تتجه إلى تدمير عمد النظام القديم بما فيه من عادات وتقاليد ورغم ذلك نراهم في شعاراتهم يناقضون المبادئ الأساسية للحداثة حينما يرفعون شعار الأصالة والمعاصرة . وإعادة قراءة التراث من منظور حداثي، أو استقراء الحداثة في مفردات التراث العربي في الوقت الذي تكشف فيه كتاباتهم بصفة مستمرة عن تأثرهم الواضح إن لم يكن نقلهم الصريح عن الحداثة بمفهومها الغربي، وهنا تكمن أزمة الحداثيين العرب في جوهرها خاصة عندما يدعون إلى القطيعة المعرفية للتقاليد الموروثة كأن تنسحب مظلة الحداثة – كما يحدث من بعضهم – على النصوص الدينية بصفة محددة في محاولات لأنسنة الدين – ونحن نرفض ذلك بشدة – إذ إن تطبيق مقولات البنيوية والتفكيك على نص ديني يوقعنا في محاذير ربما لا نقصدها :

ويقول الدكتور عبدالعزيز حمودة حول شعار الأصالة والمعاصرة :

«أما الإشكالية الأخيرة التي تثيرها الدعوة للحداثة العربية فهي التناقض الأساسي في موقف الحداثيين العرب (بين) رؤاهم النهضوية المستقبلية و (بين) محاولة إعادة تفسير التراث الثقافي أو استقرائه للوصول إلى تأكيد تراثي لمقولاتهم الحداثية الجديدة» .

وتناسوا أن فرضيات الحداثة نفسها هي رفض صريح لمقولة (الأصالة والمعاصرة)، فالجمع بينهما أمر شبه مستحيل، إذ إن الأصالة تعني العودة إلى التراث . فإذا كنا ننشد الأصالة حقا فعلينا أن ننحت مصطلحا خاصا بنا نابعا من واقعنا بكل مكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ذلك ما كان من الشق الأول حول أسباب الباحث لرفض الحداثة الغربية .

وعن الأسباب التقنية البحثية التي يطبقها الحداثيون العرب، يرى الدكتور حمودة أنها عبث لا طائل من ورائه، فإن التمسح بالصبغة العلمية لصياغة قانون عام يحكم النشاط الإبداعي محكوم عليه بالفشل كما يقول الدكتور الباحث :

«سوف يظل هذا التقنين معرضا للانهيار بالكامل حينما يجيء إلى الوجود نص إبداعي جديد يخرج على تلك القوانين ويفرض قوانينه (هو)، وعندها سوف يضطر النقد من جديد لمحاولة التقنين وهكذا إلى ما لا نهاية، وهذا يؤكد عبث الجهد الذي بذله البنيويون في محاولتهم» .

وعندما يعرض الباحث لجزئية (إضاءة النص) التي هي وظيفة النقد الأساسية يقول :

«إن ما يحققه البنيويون في حقيقة الأمر ليس (إضاءة النص) بل حجب النص بتركيز النقد على لغته، وأدواته، قبل الاهتمام بالنص المبدع، وهذا التركيز على (الميتالغة) من جانب نقاد (الميتانقد) الحداثيين يصحبه لفت أنظار للنص النقدي» .

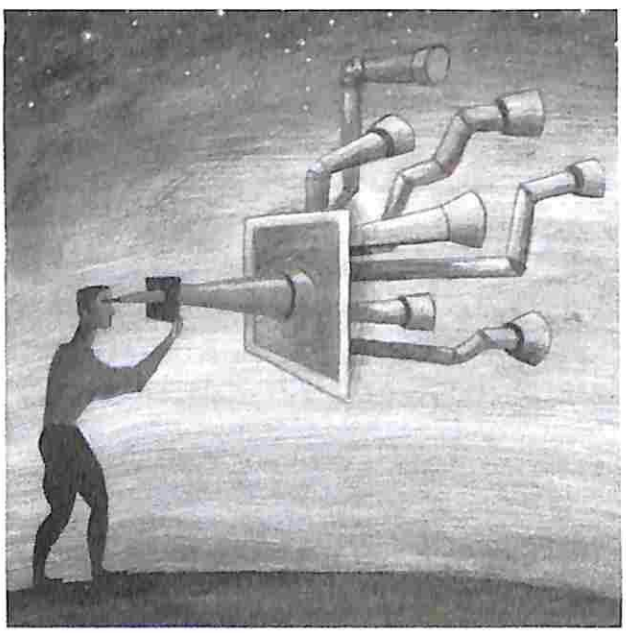

وإذا كان النقد البنيوي يحجب النص عن المتلقي فإن التفكيك يضيع النص تماما، وهذا هو جوهر التفكيك من خلال لا نهائية القراءات، وبذلك تلتقي المدرستان حول هدف واحد (موت المؤلف) (اختفاء النص)، متمسكين بمبدأ قديم هو إنكار القصدية، ولكن ليس بمعناه المعروف في المذاهب السابقة عليهم، بل بمعنى قصد المؤلف غير موجود، لأن النص الثابت ليس له وجود، وفي هذا الفراغ تصبح قراءة القارئ هي الحضور الوحيد وبذلك تصبح كل قراءة نصا جديدا مبدعا، من خلال (أفق التوقعات والتناص) إذ إن النص يعني ما يريد له القارئ أن يعني .

تلك كانت رؤية الباحث في كتابه (المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك) ويلخصها لنا في هذه العجالة بقوله :

«إن أخطر ما فعله النقاد العرب من بنيويين وتفكيكيين -في رأيي-، أنهم برغم حماستهم المحمودة لتحقيق نهضة فكرية عربية، وسعيهم الدؤب لتحقيق الاستنارة الثقافية التي نحن في أشد الحاجة إليها، فشلوا في تحقيق هدفين أساسيين: الأول إنشاء حداثة عربية حقيقية، والثاني أنهم أمسكوا العصا من المنتصف عندما احتفظوا بالطابع الماركسي للبنيوية، وهذه المحاولة جعلت النسخة العربية من البنيوية لا تختلف كثيرا عن الواقعية الاشتراكية، ويرجع ذلك التناقض في جانب أساسي منه إلى افتقار الحداثي العربي إلى فلسفة خاصة به، فهو يستعير ويقتبس من المدارس الفكرية الغربية، ويحاول تقديم نسخة عربية خاصة به لا ترتبط بواقع ثقافي أصيل، ومن هنا تجيء الصورة النهائية مليئة بالثقوب والمتناقضات».

وما كاد ينتهي هذا الفصل (٥٢) صفحة حتى تتوافد علينا ثلاثة فصول أخرى بأسمائها (الحداثة .. النسخة الأصلية) (البنيوية - سجن اللغة) (التفكيك والرقص على الأجناب) وإذا كنا نختلف مع الباحث في بعض معطيات بحثه مثل (أدبية النقاد) ونتفق مع كثير مما جاء في بحثه مثل (نحت مصطلح عربي خاص بنا)، فلا يسعنا في النهاية إلا الاعتراف بأن كتاب «المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك» كان نورا كاشفا أضاء كل المسالك المظلمة . ويبقى السؤال هل وجد الشاطر حسن طريقه ؟ ■